خليـــــل مطران

بمناسبة صدور الكتاب الذهبي لمهرجان تكريمه

للأستاذ وديع فلسطين

قليل لله كل ما قليل فى الخليل !
وضئيل وايم الحق ما بذل فى تكريمه .

خليل مطران من الماهدين[1] فى الشعر الحديث ، ومن ممهدى الطريق أمام النهضة الثقافية والفكرية فى العالم العربى المعاصر ، ومن الدعائم الأولى فى بناء الأدب المسرحى فى لغة الضاد ، ومن ذوى الفضل فى استحداث تعبيرات عربية لمصطلحات وعبارات أعجمية كانت مجهولة مغفلة حتى وضع مطران يده عليها وأشاعها وأذاعها .

وخليل مطران أديب له تميزه الخاص ، تفاعلت فيه ثقافات شتى ، وذابت فى ذهنه آداب من الشرق ومن الغرب ، وتهافتت على عربيته الأصيلة قطوف غربية متباعدة الأطراف فغذت ذهنه ، ونشرت أمام عقله المتفتح مجال المعرفة فسيحاً ، وجعلت منه ركناً ركيناً فى صرح ثقافة الشرق ، وقطباً يخطب المستشرقون ود شعره ، وباق فيه المعنيون بالأدب ذى الطابع الإنسانى الخالد معيناً لا ينضب ، ومنهلاً لا تغيض غواربه .

أنشد الشعر من خمسين عاماً أو تزيد ، فكان أبداً مجلياً مجلو البيان ، وكان دأباً فى الطليعة يؤاخى «شوقى» ويزامل «حافظ» ويأخذ عنه ومنه شعراء نصف قرن ، وستهتدى بنظامه ونثره أجيال لما تأت .

أمعن فى الكتابة ، وأوغل فى تدوين « المحبّرات الطوال » فما خلف باباً من أبواب الرأى إلا طرقه ، وما ترك موضوعاً يشغل الذهن إلا جاهر فيه بمعتقده ، وما هجر منحى من مناحى التفكير لعلة ارتآها أو ذريعة تذرع بها .

الشعر ، نظمه .

والمسرحيات ، ترجمها وألفها .

والاقتصاديات ، تضلع منها وحباها بالكثير من وقته وجهده ؛

والصحافة ، مارسها واشتغل بها وحمل أعباءها فما تنكر لها وما تنكرت له .

والمنبر ، ارتقاه منشداً وخطيباً ، فلم تذهب نحواته و« دقة » حجمه بقدرته على امتلاك أفئدة المصيخين له .

لخليل مطران موسوعة حية متنقلة . جالسته كثيراً ، فكان دائماً صاحب زمام الحديث ، يديره يمنة ويسرة ، ويعرج به على القديم ، ثم يقفز إلى الحديث بل إلى المستقبل البعيد . يعالج فنون الأدب والعلم علاج مقتدر أصل قواعده ، وثبت قدميه . ينظر إلى شؤون الحياة نظرة مشارفة مستعلية فلا تبهره الظاهر ، ولا يحول البهرج دون أن يبدى فى الشأن حكماً سديداً . فقد حلب الدهر أشطره ، واستوعب غاية ما يستطيعه فرد من قراءة واطلاع وبحث . وخبر الناس طبقات طبقات ، وشهد مواكب المدنية تترى أمامه ، ورأى أصولا ثابتة تتداعى ، وقواعد مؤثلة تهوى وتبلى ، وجالس وطوف ، وأقام فعرف الباقيات الخالدات من الفانيات الذاهبات . واستجمع هذه الذخيرة كلها فى رأسه يرتد إليها فى النظم ، ويعود إليها فى المحادثة ؛ ويغرف منها كلما اشتهى قلمه الكتابة ... وتلك شهوته المفضلة الأثيرة المقدمة على سواها

خليل مطران ، وإن كان قد تسنم قنة المجد ، وارتقى درجات الرفعة السامقة وشهد ملوكاً يضفون عليه من صنوف التقدير ألواناً ورؤساء جمهوريات يتسابقون فى تكريمه والاحتفاء به ، وشعوباً تهتف باسمه وتردد شعره فى كل صقع ناطق بالضاد ، وأقطاباً مرموقين يجتمعون من كل حدب وصوب ليسدوا له الثناء موفوراً على مسمع من الحشود ، وعلى ملأ من المعجبين ... وإن كان مطران قد قرأ كتباً ألفت فى إطرائه وتقريظه ، ومقالات دبجت فى مديحه والإشادة به ، وشعراً أنشد فى تمجيده وتخليده ، غير أن هذه جميعاً لم تفلح فى بث روح الكبر فى خليل مطران ، ولم تُسعد فى حمله على الشموخ والاستعلاء .

فقد ظل الخليل لأصدقائه خليلا ، وأبقى على خلة الاتضاع والوداعة ، حتى لقد أفرط فى هذا إفراطاً تجاوز المدى . وكثيراً ما حدثنى عن « تفاهته » وصغر شأنه وعجبه من أن يكون

(١) الماهدون تعبير يطلقه المغتربون العرب على طلائعهم التى كان لها فضل السبق فى الهجرة إلى الدنيا الجديدة وفى استيطان بلاد ليس لهم بها معرفة ولا ألفة .

موضوع ذكر من قومه .

وهذا شعره يردد فيه آيات الدعة فيقول :

أخاف من سوء تأويل لرأيكم ... في الفضل لو قلت إني لست بالقمن

ويقول :

سادتي ، جاز فضلكم آمالي ... أجدر شأني بأدنى احتفال

أي شيء أنا الذي نال هذا الـ ... ـعطف منكم ، ما محتي ، ما اعتلالي

ما يرجى من مشهدي أو مغيبي ... ومكاني إلا من الطيف خالي

عندي الحائلان دون رفيع الـ ... ـقدر من قلة ومن إقلال

بل لقد يذهب به تواضعه إلى انتقاد رقيق الحال من الأدباء .

وسلوا أحياء القاهرة الفقيرة تجبكم أن خليل مطران أعرف الناس بدخائلها وبخارجها ، وأكثرهم إلماماً بأزقتها وترهاتها ، فقد كان بنفسه يزور كل أديب ، ويبحث عنه أينما كان مأواه ، ليعرف أفي مسرة هو أم في معسرة ، أبه حاجة إلى عون يسدى إليه أم إلى هم يرفع عنه ، أم إلى قلب كبير يواسي قلبه ، أم إلى كلمة تشجيع يحفز بها همته ، أم إلى رفقة تؤنس وحشته ، أم إلى حديث شعبي ينسيه علته . وحسبي في هذه السانحة أن أقول إن خليل مطران كان من القلة القليلة التي أحاطت بالشاعر إبراهيم الدباغ يوم ألمت به أسقام البدن ويوم حرمته الدنيا بهجة الإبصار ، فكان يقصد صومعته في زورات متتالية منتظمة غير متحرج ولا متردد ولا معاند ، وكان يؤثر مجالسة هذا الأديب على مسامرة الكبراء وذوي اللقب والجاه .

وخليل مطران قوة دافعة للأدباء يرى هذا يوشك على القعود فيقيمه ، وذاك يسرف في انحرافه فيقومه ، لا يبخل بالتشجيع ولا يضن بالثناء ، ولا يدخر وسعاً في سبيل بعث الهمة التي تبطت ، ورد روح النشاط التي خمدت .

أتيته يوماً بكتاب ترجمته وقلت له : إني عليم بأمراضك مدرك أنك من طلعة الشمس إلى طلعتها في صبيحة اليوم التالي تبرح بك الآلام وتخضع لنظام دقيق عينه لك الأطباء ؛ فهذه إبرة تحقن في جسمك مرات في اليوم ، وهذه أنواع شتى من الأدوية تتعاطاها شرباً واحتلاباً وابتلاعاً عدا الحمامات الساخنة وأعباء التدليك والتدهين . ورجوته بعد هذا أن لا يكلف نفسه عناد تلاوة هذا الكتاب ، وحسبي فخراً أن أراه موضوعاً في مكتبته .

فما كان من مطران إلا أن قضى الليلة ساهراً يتلو الكتاب كلمة كلمة ، غير مشفق على بصره ولا على صحته المتهالكة ، ولا مترفق بيديه الكليلتين اللتين لا تقويان على حمل شيء ، حتى إذا ما أوشك الصبح على البزوغ ، كان صاحب القلب الكبير قد أتى على الكتاب جميعه .

أندرون لِمَ فعل مطران هذا ، ولم عرض نفسه لخطر قد يصيب حياته أو يرد حالته الصحية القهقرى ؟ ! لقد فعل الخليل ذلك ليستطيع في اليوم التالي أن يفوه لناشيء بكلمة تشجيع وإطراء ، فيرضي ضميره ويريح نفسه ، وإن كان ذلك يؤدي على حساب الصحة والبصر والإجهاد الذهني . .

وللاستدراك أقول إن خليل مطران وصف حالته الصحية يومذاك ببيت من قريض مألوف في قرى لبنان ، نصه :

وجسمي صار نص ميت ونص حي

ونص الحي باق للعذاب .

هذه صفحة عن خليل مطران رأيت أن أنشرها اليوم في مناسبة ظهور الكتاب الذهبي لحفلات تكريمه . وليت المجال يسعف ، فأدع القلم يتحدث عن مطران الذي عرفته فعرفت فيه إباء في النفس ، وكرماً في الخلق ، وسعة في الصدر ، وسداداً في الرأي ، وبصيرة نافذة في الأمور ، وعفة في اللسان والقلب ، وجرأة في القول والفعل ، وسخاء في العطاء والاحسان ، ووفاء لا يبرمه ، وإخلاصاً يستمده من قلبه العامر بالإيمان ، ومجالدة تدعوه إلى احتمال كل عناء . بل لقد رتب خليل مطران على نفسه واجبات تعهد بالنهوض بها ، فما أخل بوعده ، ولا منعته علة عن تأدية هذه الواجبات جميعاً عن رضا وراحة ضمير .

ولئن كانت هذه المحامد بأسرها قد اجتمعت وتبلورت في خليل مطران ، وأسبغت عليه الشخصية الفريدة التي يزدان بها هذا الأديب الجليل الكبير ، فليس يسع المرء إلا أن يضرع إلى الله أن يلطف به وبصحته ، ويبرىء بدنه من الأدواء التي تكالبت عليه ، ويمنحه من فيض رحمته ما يخفف عنه أوجاع المرض ، ويكلأه برعايته في أيام تمر عليه كالسنين والدهور .

فليس عند العروبة سوى « خليل مطران » واحد ، ونحن نراه لا زمة بل ضرورة لأنه بناء لم يعرف الهدم ، ولأنه مجد مصلح كله وفاء ومكرمات .

وديع فلسطين